مجلة المرابط

العدد : ٢١٤ الموافق في رجب ١٤٢٠ هجري ١١ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : التصوف والغرب ٢/١	بقلم : د. مروان قباني

إن من آيات الله تعالى الباهرة في خلقه أنه لم يوجدهم على مثال واحد ؛ بل خلقهم على تنوع كبير في مفاهيمهم وأذهانهم ، تبعاً لاختلاف ألوانهم وألسنتهم وظروفهم وبيئاتهم . قال تعالى : { **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم** ... } [الروم : ٢٢] ، فكان من الفطرة الطبيعية إذن وجود تلك الفروق الفردية بين قدرات أفراد البشر ومداركهم في جميع شؤون حياتهم .

ولقد أقر الإسلام بهذا الاختلاف فقال تعالى : { **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ۞ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** ...} [هود : ١١٨-١١٩] ، إلا أن هذا الاختلاف ينبغي أن يبقى ضمن حدوده المشروعة التي تغني البشرية فيكمل بعضها بعضاً ، ويكون الناس ساعتئذٍ أمة واحدة في تحقيق عبوديتهم لله ، كما قال تعالى : { **إن هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدون** } [الأنبياء : ٩٢] .

وقد حدث فعلاً أن نشأ الاختلاف بين أفراد الأمة الإسلامية ، ولكنه لم يبق في أغلب الأحيان ضمن حدوده وضوابطه ، فظهرت تيارات وأفكار وفرق ومذاهب ، كونت كل منها عصبيات ، لم تتقيد على الأغلب بآداب الدين في رؤياه للمقاصد وقواعد الاختلاف ، فكان أن تكونت هوة واسعة بين كل تيار وآخر ، يتقاذف كل طرف مع الآخرين شتى أنواع التكفير والتفسيق والتجهيل ، والبحث عن العيوب لتضخيمها وعن المحاسن لإخفائها ، بل وصلت أحياناً إلى استحلال الدم والمال .

وقد كان من أبرز عناوين تيارات هذه الأمة :

١- **أهل علم الكلام** : الذين بدؤوا من محاولة الاستدلال بالأدلة العقلية للرد على المبتدعة ، وخاضوا بالبحث في صفات الله واختلفوا ما بين مثبت لها ومعطل ومشبه ، ورغم أن بعض حكماء العلماء حرموا الخوض في هذا العلم ، فقد آل إلى سبب للفرقة والفتنة بين المسلمين .

٢- **أهل الفقه** : الذين بحثوا في أفعال المكلفين لاستنباط الحكم الشرعي في الأمور المستجدة بالاستدلال من القرآن والسنة والإجماع والقياس وغير ذلك ، فانقسموا إلى أهل النص وأهل الرأي ، ثم نشأت المذاهب تيسيراً لأمور العباد ولكنها تحولت إلى عصبيات خاضت في التفريع والتنظير .

٣- **أهل التصوف** : وطرقهم المتعددة ، وهو ما سنشير إليه في كلامنا التالي.

هذا ولم نذكر الشيعة وفرقها التي أدى الخلاف معها إلى خلخلة شقت صف الأمة إلى عصرنا

الحاضر .

ولا يعنينا في مقامنا الآن الكلام عن نشأة هذه التيارات ولا أسباب الاختلاف ، إنما يهمنا - وحديثنا عن التصوف والغرب ضمن مفهوم العمل الإسلامي وأولوياته - وقبل أن نتناول هذا الموضوع مباشرة ، أن نمهد له بذكر مقدمات وقواعد لا بد منها ، توضيحاً للمنطلقات وتوافقاً في الرؤية على مسائل نراها لازمة للوصول بسلامة إلى ما نهدف إليه .

أولاً : إن الإسلام بعمق مبادئه وسعة رؤيته يحتضن كل هذه الفرق والمذاهب تحت مظلته الكبيرة ، طالما التزم الجميع بتوحيد الله تعالى واتباع سنة رسوله ﷺ ، وعلى ذلك فإن الإسلام غير قابل للاحتكار ، ولا يصح مطلقاً أن يدعي أي تيار أنه وحده يمثل دين الله ، وأنه بمفرده العارف بعقيدته المطبق لشريعته الواقف عند حدوده ، إن لكل اتجاه تمام الحرية في واقع الأمر أن ينظر إلى الدين من زاويته ويفهمه بمفهومه ، طالما حافظ على مبادئه ومقاصده .

ثانياً : إن الحزبية والفرقة والعصبية أخذت من كل جماعة مأخذها ، فأنهكت أذهاننا في تصيد بعضنا بعضاً ، وشوهت تاريخنا بممارسات غير لائقة بمن قال عنهم ربهم : { **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ... } [البقرة : ١٤٣] ، أفلم يأن لهذه الأمة بعد كل ما حدث أن تخرج مما وقعت فيه ، وتسلك طريقها نحو رسالتها ؟!.

ثالثاً : إننا في الكلام عن أي تيار ، بل وأي عالم ، ينبغي أن تنضبط معالجتنا له ضمن مبدأ الوسطية والتوازن ، فنقر بما له من مزايا ونذكر الحق لأهله ، وبالوقت نفسه نشير إلى ما نظن أنه غير صواب استناداً إلى الدليل النقلي والعقلي ، وأن نبتعد تماماً عن أسلوب كيل التهم المتنوعة المعروفة ، وبالمقابل الابتعاد عن توجيه المديح والمبالغة في التقدير .

رابعاً : إن إشكالية كبيرة تدمغ خطابنا في العديد من القضايا هي : التعميم والشمولية ، مع أننا وفي كثير من أدبياتنا نطلب من الآخرين عدم التعميم ، وبالرؤية المتفحصة في كلامهم عن الإسلام وأهله في ممارساتهم وتاريخهم وواقعهم وبلدانهم ، ثم نقوم من جهتنا بتطبيق الشمولية والتعميم تجاه الآخرين وإطلاق الأحكام التي نراها تنطبق على جميع الأفراد والأمم .

هذه مقدمات أربع وددت التأكيد عليها في توضيح معالم الطريق الذي نسلكه انتصاراً للحق وللحقيقة .

التصوف

التصوف تيار واسع من تيارات الأمة الإسلامية ، يمثل قطاعاً فكرياً وسلوكياً هاماً ، يعبر عن تفكير خاص به ، وله غور بعيد في الزمان وتأثير كبير في النفوس

وبصرف النظر عن اسم التصوف واشتقاقه ، فمن المؤكد أنه لم يعرف في مصادر الإسلام الأساسية وهي القرآن والسنة ، ولم يؤثر عن جيل الصحابة والتابعين أنهم تسموا بالصوفية أو أنهم استخدموا مصطلحاتهم ، ولكن مضمون التصوف يعبر في الأصل عما ينبغي أن يكون عليه كل مسلم ؛ بأن يذكر الله ذكراً كثيراً بلسانه وقلبه ، مستشعراً مراقبة الله في أقواله وأفعاله وفي سره وعلانيته ، مما تحض عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

يعرف المؤرخ ابن خلدون التصوف في مقدمته المشهورة فيقول : (هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة ...) ص ٤٦٧ .

فالتصوف إذن ظاهرة إسلامية نبتت في أجواء الإسلام ، وتأثرت أساساً بأفعال النبي ﷺ وصحابته بالجملة ، إلا أنها كبقية الظواهر والتيارات والحركات لم تبق بمنأى عن المؤثرات الأجنبية خلال الانتشار الإسلامي من اعتقادات وأفكار وفلسفات متنوعة كان لا بد وأن تترك عليها بصمات واضحة .

إضافة إلى ذلك تسببت الأحوال السياسية والاجتماعية غير المستقرة - في مختلف البلاد الإسلامية - لآماد طويلة بدفع البعض إلى البعد عن الانغماس في الدنيا ، وإلى الفرار من الحياة وما فيها من لذات ، والاقبال على رياضة النفس ، وتعويدها الطاعات والمجاهدات النفسية ، كل هذا أدى إلى ظهور الطرق المختلفة مع نظام خاص لكل منها من الاصطلاحات والألفاظ والإشارات ، كما أدى دخول الفلسفة على التصوف إلى ظهور اتجاهات صوفية فلسفية ، خضعت لمؤثرات مسيحية ويهودية وهندوسية فأدت في كثير من الأحوال إلى التحلل من ضوابط الإسلام ، وتحت تأثير كل هذا ظهرت الأقوال بالحلول وبوحدة الوجود وبالإشراق ، كما أدى ادعاء الصوفية بقدرتهم على النفاذ إلى معرفة العلوم والحقائق عن طريق

الكشف إلى : تقديس الأشخاص ، وتسميتهم بالأقطاب والأولياء وأهل الله ورجال الحقيقة ، وغير ذلك من الألقاب التي تحيط الأشخاص بهالة عظيمة ، ونظرةٌ إلى قباب الأضرحة المنتشرة في العالم الإسلامي وما يجري فيها من ممارسات تبين مدى عمق وانتشار هذا التيار .

يقول الصوفي الإمام أبو القاسم القشيري (ت : ٤٦٥ هـ) في رسالته المسماة بالقشيرية : (.. وقد حصل الضعف في الطريقة ومضى الشيوخ الذين كان بهم إقتداء ، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرهم وسنتهم إقتداء ، وزال الورع وطُوِيَ بساطُه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وابتعدت عن القلوب حرمة الشريعة ؛ فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، كما استخفوا بأداء العبادات ... وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات ...) .

ولكن نتائج التصوف لم تكن سلبية فقط ، بل لا بد أن نشير إلى النواحي الإيجابية التي حققها رجال التصوف ، وهي : تعميق فكرة تقوى الله في النفوس والتوكل على الله ، والتعود على الصبر ، وهي ركائز إيمانية اشتهرت بها الشعوب الإسلامية ، وكانت نافعة لها في أزماتها وملماتها ، كما لا ننسى فضل الصوفية في نشر الدعوة الإسلامية قديماً خارج ديار الإسلام ، كما حدث في الهند وإفريقيا حيث انتشرت الطرق الصوفية ، ورافق هذا دور المتصوفة في الجهاد والمرابطة في الثغور الإسلامية لحمايتها ، واشتهرت رباطات عديدة بأنها كانت مقراً للصوفية لممارسة النسك والزهد والجهاد . إضافة إلى الخانقاهات ، ومن لا يعرف فضل الطرق الصوفية في تثبيت الدين في نفوس المسلمين لعقود طويلة في البلاد الإسلامية التي خضعت لما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي وألبانيا ، رغم كل ممارسات القهر والعسف والاضطهاد على شعوبها ...

*** ألقي هذا الموضوع في الملتقى السنوي الرابع والعشرين الذي ينظمه المركز الإسلامي في آخن وكل من اتحاد الطلبة واتحاد العمال المسلمين في أوروبا ، وكان عنوانه الرئيسي : « أولويات العمل الإسلامي في الغرب » وعقد بتاريخ ٢٤-٢٦ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ ، ٨-١٠ آب/ أغسطس ١٩٩٩م .**